علال الحجام

عطش الماء

(١)

هو الماءُ منبجسٌ في حنيني إليكِ
يُلابسُ سيلُه وجهِيَ
يُحيي الرمالَ
تهاجر قطرةَ حُنوٍ على جذوة المستحيلْ
في توهّج إشراقة لم يُغثْها الدليلْ
كذَّبَ العطشُ المشرئبُ وعودَ البروقِ
وكذّب إيماءةً للغيومْ
أفصحتْ عن خبايا الطريق النجومْ
قاومتْ بسمةً خادعهْ
ثم غابتْ
تردَّدَ في الحلقِ موَّالُها
أطرقتْ،
بلَّلَتْ شالَها المُدْلَهِمَّ بجدب الفصولِ
وألقتْ بآهاتها الضارعهْ

(٢)

تطير العصافيرُ
ترحلُ من دمنةٍ وتحطّ على شجرهْ
تغرّد شاجيةَ الصوتِ
تَذْكُرُ أوكارها واحداً واحداً
ثم تنسجُ في حَدْقَةِ الفجرِ أعشاشَها
وطناً بين غصنٍ وغصنِ
يعانقُ أزرق منتشياً بالضياءِ
تغالبُ عاصفةٌ ياسمينَ الغناءِ
وتغتربُ القبَّرهْ
تغني لمن ليس في الأرض شبر لأحلامِهِ
صالحاً للأغاريد زغرودةً في المتاهاتِ تعلو
مهاجرةً ينثر الحُزْنُ حول مواويلِها السّودِ ليلُ
لها وطن بين غصن وغصنِ
ولي وطنٌ
بين منديل عاشقة باكيهْ
وقرّ شتاء يعشّش ثلجُه في عرباتِ القطارْ
لماذا أيا مرفأً دمَّرَ السفنَ الناجيهْ
تُبَرِّئُ سيفَ العواصف من دمها القُدُسِي
وتورّط زهر النهارْ!؟

(٣)

للجبالِ التي شردتْها المنافي
تحنُّ السواقي
وللقمر المتهالك همسُهُ عبر امتداد لهيبِ المآقي
تطولُ الغصونُ

وتمتدُ خلف المجاله راقصةً
طرقٌ تقتفي في الظنون نشيدَ الغمامهْ
تئنُّ المراكبُ من فرط إبحارها:
رافقتْهُ السَّلامَهْ!
فهل أتعبَ الضوءُ جفناً
وهل ملّ ثلج حميَّا المدامَهْ؟!
وهل كان موتي
على لهب يتراقص في مهرجان الدُّجى
غَيرَ ميلاد شمعهْ!؟
قال لي النهر ذات شروقٍ
أنا أتعشقُ صوتَ انهماري
يحاورُ حَزْناً، يبثُّهُ شكوى ظماهُ
فينفجر النبع حين أشارف جمر الصحاري
أغالب نومِيَ حتى حدودِ التوجُّعِ
أيتها اليقظاتُ الجميلة هذي عيونيَ
قبلة نجم تأبَّدَ ليلُهُ فاكهةً للدمارِ
أيوقظني البحرُ حين تداعبه نسمةٌ
أم ينام على وتر الحلم بين جفوني!؟
أعاتبه لحظةً
جاهراً بالعذاباتِ في الصمتِ
تشرَقُ بين الضبابِ المرابطِ نجمهْ
تعاتبُها في الدواخِل أنَّهُ جرحي المشاكِس
تعلو على قَلَعاتِ آنكساريَ
كِلْمَهْ...

(٤)

انتصب أيها الجرحُ
غَيِّرْ مدارَكَ وآزحف إلينا
آرتفع أيها البحر عن طول هامِكَ
قبل آختفائِكَ،
رملُ الصحارى يَحُثُّ الخَطى:
خضرةٌ في الذبولِ تأوَّهَ شلالُها
زُرْقَةٌ تنتهي الغدَ بركانَ ملحٍ
ويأفلُ في الحلقِ موَّالُها
فمِنْ أينَ تأتي الطيورُ لهذي الشواطِئِ
تغمسُ في سكرةِ الذكرياتِ الفواتِن أرياشَها
ثم تورقُ غاباتُ صُبْحِ؟
أثمر الليلُ فاكهةً ساحرهْ
من يمدَّ إليها يداً يحترقْ
وأزهر وهجُ الجنوبِ
عواسجَ تُدمي آنتظار حبيبي
ورواداً على صخرةٍ
حاصرتْها العذاباتُ والغربة النافرهْ.

(٥)

تغيبُ الطيور
تغرِّبُ أترابها والحديقهْ
وينسى الحبيب عشيقهْ
ولكنها ترتوي حين تَشْتَمُّ عطرَ الترابِ
على صدرِكِ البضِّ،
هلْ يجهلُ الريشُ أجنحةً
حَمَلَتْهُ إلى الأُفْقِ أعشاشُها
في الخميلةِ والظنِّ باقيةٌ،
ثم هلْ يجهلُ القلبُ نبضي!؟
هو الماء منهمرٌ واشتياقي يمخرُهُ
موجةً موجةً...
من يقاومُ أمواجَ موتيَ فيكِ
ومن يوقفُ الزَّحْفَ أرياحُهُ تشتهيكِ!؟

تعودتُ أن أتغنى بعينيكِ في ليلِ فرحٍ يُجَنُّ
وعودتِني أن أحلّق جرحاً يَنزُّ،
يَعُبُّهُ دنٌّ،
فتغدو القيودُ سماءً تميسُ بأفراحها في الكهوفِ
وتغدو البروجُ المخيفةُ
مختبراتُ التفجُّع
قوسَ قُزَحْ،
تورطتُ فيك،
وورَّطتني في آشْتِهاءِ جنونِ الفرحْ!
لأني لبرِقِكِ أنذرُ قلبِيَ
أفتح بابَكِ يلبسني طيلسانُ الترابِ
تسدينَهُ، ثم أفتح كلَّ المجاهل تركبُ شمسِي
وتغزو اشتهاءاتِنا لبَهاها...
أنا الآن في قلعةِ الليلِ أبحث عن وجه إشراقِهَا:
«أينما حلَّ ليلٌ فثمةَ وجهُ الصباحِ»
فمن يستطيعُ المسيرَ وهذا الطريقُ
سراديبُ مسكونةٌ بالتورّط فيكِ،
ومنْ يشتهيكِ...؟
لعينيكِ أهدي رحيقَ آنتظارِي على حدِّ سيفِ
تغيبُ عن الأفْقِ شمسٌ
وتبقى مؤَرَدةً في انفجارِ الحنينِ
يدلُّ عليكِ،
لأنك أنت الملاذُ الأخيرُ
تشيرُ الجراحُ إليكِ
فأهفُو لركبِ آحتراقي
لأنك علمَّتِني الخيلاءَ وأسْمَى
وليستْ عيونيَ تمتَدُّ إلاّ إلى منبع النهرِ مزهوةً بالنخيلِ...
وإلاّ فَتَعْمَى..!